

فلسفة الخطاب الإصلاحِيّ النهضويّ عند محمّد عبده

Philosophy of renaissance speech according to Mohamed Abdou

د. سليمان لبشيري

جامعة محمّد خيضر - بسكرة (الجزائر)

تاريخ القبول: 2019/12/19

تاريخ الإرسال: 2019/10/17

ملخص:

شكل الخطاب الإصلاحِيّ النهضويّ في الفكر العربيّ الإسلاميّ الحديث نزعة نحو التّجديد والتّغيير فرضتها العديد من التّحدّيات؛ إذ إنّ ما شهدته العالم العربيّ الإسلاميّ مُدّ عصر الموحّدين هو الأُفول والتّدهور على المستوى الحضاريّ والثّقافيّ والذي نجم عن عدّة عوامل، داخلية منها تمثّلت في العجز التّام عن أيّ إبداع ذاتيّ في شتّى المجالات، زاده الأمر سوءا انعدام الآليات والمقوّمات لتجاوز ذلك الجمود والركود الذي أدّى إلى تحجّر الفكر وتدنيّه ضيف إلى ذلك العامل الخارجيّ المتمثّل فيما يفرضه الآخر؛ أي الغرب من منطق السّيطرة والتّحكّم في زمام التّطوّر الحضاريّ، ناهيك عن تداعيات الخلافات والتّناطحات السّياسيّة والاجتماعيّة التي كان الاستعمار مقدمتها الكبرى.

لذا ونتيجة لهذه العوامل ظهر الخطاب النهضويّ الإصلاحِيّ في العصر الحديث حاملا لواء العودة إلى الدّين من أجل الدّخول في المعترك الحضاريّ الذي أصبح يشكّل حتميّة تاريخيّة في ظلّ أزمات حادّة شهدتها نفسيّة الإنسان والمجتمع العربيّ والإسلاميّ آنذاك. إذ وجد "جمال الدّين الأفغاني" بأنّ ضرورة الإصلاح لا بدّ أن تنطلق من الجانب السّياسيّ، أي إصلاح السّياسة، إذ بها يمكن إصلاح النفوس والمجتمع. أمّا تلميذه "محمّد عبده" فقد سلك منحى آخر للإصلاح انطلاقا من المجتمع والرّبية، مرتكزا في ذلك على التّجديد الدّينيّ الذي قوامه الوسطيّة في الإسلام.

وإذ يستوقفنا هنا "محمد عبده" كنموذج للإصلاح النهضوي، فإننا سنعمل على مقارنة هذه الإشكالية في ضوء الوجهة الفكرية التي انتدبها مشروعه النهضوي الإصلاحي -الاجتماعي- والتربوي- على النحو الآتي:

إذا كان "محمد عبده" يجعل من الفرد والمجتمع بادرة الإصلاح والنهضة من باب ضرورة إصلاح ما في النفس والمجتمع، فما هي المبررات والمصوغات التي جعلته يركز على الإصلاح التربوي الاجتماعي كسبيل لتحقيق نهضة حضارية في العالم العربي الإسلامي؟

الكلمات المفتاحية: محمد عبده، النهضة، الإصلاح، المشروع النهضوي.

Abstract :

The renaissance reformist discourse in the modern Arab-Islamic thought formed a tendency towards renewal and change posed by many challenges; what has been witnessed in the Arab-Islamic world since the Almohad Era is the fall and decline on the level of civilization and culture which resulted from different factors, including internal ones represented in a complete inability of any self-creativity in various fields. This was exacerbated by the lack of mechanisms and constituents that led to the solidification and decline of thought, in addition to the factor of what the Other imposes, namely, the West of the logic of domination and control of civilization development, not to mention the repercussions of differences and political polarizations which led a big destruction.

As a result of these factors, the renaissance reformist discourse emerged in the modern era with the banner of returning to religion in order to enter the civilizational battle, which became a historical inevitability in the face of severe crises experienced by the psyche of man and the Arab and Islamic society at that time. Jamal al-Din al-Afghani found that the need for reform must start from the political side, that is, policy reform. By which we reform soul and society. His student, Muhammad Abdo, took another course of reform starting from society and education, based on religious renewal, which was based on the centrality of Islam.

As "Mohamed Abdo" as a model for Renaissance reform, we will work to approach this problem in the light of the intellectual orientation mandated by his project of Renaissance reform – social educational - as follows:

If Mohammed Abdo makes the individual and society a gesture of reform and renaissance out of the necessity of reforming oneself and society, what are the justifications and formulas that made him focus on social educational reform as a way to achieve a civilized renaissance in the Arab Islamic world?

Keywords:

Mohamed Abdo, Renaissance, Reformation, Renaissance Project.

مُفتّح:

يعتبر الإصلاح بشقيّه الدينيّ التربويّ والسياسيّ الاجتماعيّ من أهمّ معالم المشروع النهضويّ الذي سطره "محمد عبده" ودعا المسلمين إلى تطبيقه، كما كان محيطه دور في بناء شخصيته، ولتكوينه العلمي دور في محاولته لإحياء الأمة، بالإضافة إلى الظروف التي عاشها والتي ساهمت في بناء منظومته الإصلاحية، ومن هذا المنطلق سنتطرق إلى أهم الجوانب التي تمحورت إصلاحاته حولها ونقصد بذلك دعوته للإصلاح الديني والتربوي وكذا مناداته بضرورة الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

● عوامل بلورة مشروع "محمد عبده" الإصلاحي:

كانت هناك العديد من العوامل والظروف التي ساعدته في بناء شخصيته والسير بها نحو بناء عالم عربيّ متقدّم، سواء كانت متعلّقة بمجتمعه أو بالأحداث السياسيّة، أو بالكتب والمطالعات التي أثّرت عليه، وتتمثّل هذه العوامل فيما يلي:

أ. العوامل الاجتماعيّة:

كانت المنطقة التي يعيش فيها "محمد عبده" وهي محلة نصر أكثر المناطق المتعرضة للظلم والاستبداد، فأصبحوا أهل القرية يهجرونها ويفرون منها بسبب الظلم، وأسرة "محمد

عبده" كانت أكثر الأسر التي عاشت هذا النوع من الظلم، فسجن أبوه في تلك الفترة بحجة أنه من الذين يملكون السلاح وأنه يخرض أهل القرية على الحكام، وبعد وفاة حاكم منطقة محلة نصر خرج والده من السجن وعاد إلى بيته الذي لم يجد منه سوى الجدران فكانت طفولة "محمد عبده" قاسية نوعاً ما⁽¹⁾.

ب. العوامل الثقافية:

بعد عزوف "محمد عبده" عن طلب العلم ورجوعه إلى مسقط رأسه وزواجه وبعد إلحاح والده وإصراره عليه بضرورة عودته إلى طلب العلم عرفت حياة الإمام "محمد عبده" مرحلة جديدة ملؤها السعادة، وذلك عند التقائه بالشيخ "خضر" واعتناقه التصوف(*) وهذا ما يعبر عنه "محمد عبده" بقوله: "ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وُجّهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد، إلى إطلاق التوحيد... هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشيخ "درويش خضر" من أهل "كنسية أورين" من مديرية البحيرة وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب من عزيزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي"⁽²⁾، أي أن الشيخ "خضر" كان له الفضل الكبير على حياة "محمد عبده" الثقافية، وكان سبب في إخراجه من الجهل والتحجر إلى النور والعلم والتقدم، وهذا ما أصبح سر سعادة "محمد عبده".

كما نجد أنّ الأستاذ الإمام "محمد عبده" تأثر تأثراً كبيراً بأستاذه "الأفغاني" فكان يخاطبه بكلمة (مولاي المعظم)، وهذا ما دعاه إلى الاشتراك مع "الأفغاني" في النشاط السري الذي أنشأه أثناء إقامته بمصر⁽³⁾.

ج. العوامل السياسية:

إنّ القرية التي ولد فيها "محمد عبده" وترعرع فيها كانت تحت الحكم الإقطاعي حيث كانت واقعة تحت سيطرة الحاكم وظلمه وجبروته، وخاصة أسرته وذلك لأنها كانت ذات طبقة اجتماعية مرموقة في القرية ولذا كان ظلم الحاكم وتسلمه عليها كبيراً، لأن "محمد

عبده" وأسرته بمكانتهما الاجتماعية شكلا عائقا أمام الحاكم والسلطان من تحقيق أهدافه والوصول إلى الرعية، وبالتالي مارس عليهما السلطان كل أنواع الظلم والاستبداد والتعسف هذا ما دفع "محمد عبده" إلى التفكير في الثورة للتحرر من التسلط والخضوع، وهذا ما شكل رادفا ودافعا قويا للإصلاح السياسي لـ "محمد عبده" فيما بعد، وكذا لا يخفي علينا مناهضة "محمد عبده" للاستعمار ومحاربه له، وأثرها في التوجه السياسي لـ "محمد عبده" وفي دعوته إلى ضرورة قيام بإصلاح سياسي للدولة والحكومة وإعادة هيكلتها وضبطها⁽⁴⁾.

• تمظهرات المشروع الإصلاحي:

أولا. في مفهوم الإصلاح عند محمد عبده:

إنّ مفهوم الإصلاح عند "محمد عبده" مستمد من القرآن الكريم وذلك انطلاقا من قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"⁽⁵⁾، فالآية الكريمة آية عظيمة تدل على أن الله - سبحانه - لكمال عدله، وكمال حكمته، لا يغير ما يقوم من خير إلى شر ومن شر إلى خير، ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وبالتالي فالإصلاح من وجهة نظر الإمام "محمد عبده" تعني محاولة تغيير الأوضاع التي يعيشها العالم الغربي والإسلامي وإصلاح واقعه، وتكون النقطة الجوهرية والأساسية في هذا الإصلاح هي الإنسان بوصفه الوحدة الأساسية في المجتمع وبوصفه كائنا فعلا في هذا المجتمع وعليه فصلاح الفرد في صلاح المجتمع.

ولقد وضع "محمد عبده" مجموعة من الأهداف لهذا الإصلاح تتمثل فيما يلي:

أ. العمل على التحرّر من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، ويتمّ هذا من خلال فهم الدين على طريقة السلف، انطلاقا من الكتاب والسنة وبهذا يتحرر الفكر الإنساني ويتمّ هذا من خلال إعمال العقل وتوظيفه في فهم مسائل الدين مع إمكانية الاستفادة من الحضارة الأوروبية⁽⁶⁾.

ب. إصلاح أساليب اللغة العربية وذلك من خلال تجاوز الركاقة في التعبير والانحطاط الذي عرفته الكتابات العربية وهذا ما يؤكد "محمد عبده" بقوله: "الإصلاح اللغوي يجعل حاضرن اللغوي والأدبي امتدادا لعصرنا الذهبي وتخطي عصور الركاقة والعجمة التي غرق فيها أدبنا في الشكليات والزخارف والمحسنات..."⁽⁷⁾.

من هنا فإن "محمد عبده" يدعو إلى ضرورة رجوع الكتابات العربية التي شهدت في عز ازدهارها حيث كانت تتميز هذه الكتابات بأساليبها اللغوية الراقية وتعبيرها الدقيق وفصاحة الألفاظ ودقة المعاني هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجاوز هذه العصور الغابرة التي شهدت ركاقة في التعبير ودخول مصطلحات أعجمية على القاموس العربي، كما شهد هذا العصر اهتمام الكتاب بالزخارف اللغوية والمحسنات البديعية كالاتمام بالشكل وإهمالهم للمضمون حيث تكمن الفائدة.

ج. الإصلاح السياسي: حيث ركز جهوده على إصلاح الحكومة والدولة.

ثانيا. الإصلاح الديني:

إن المسألة الجوهرية في فكر "محمد عبده" هي فكرة الإصلاح الديني الإسلامي، حيث استحوذت هذه الفكرة على جلّ اهتمامه وكان الهدف من ورائها أخلاقيا، أي إصلاح البشر، فكان يدعو "إلى التسامح الديني وإلى الاجتهاد في الرأي وإلى التفكير المستقل عن كل سلطة إلا سلطة العقل، وهو الذي صرح غير مرة أن المباحث التقليدية التي يقضي فيها شيوخ الأزهر أعمارهم لا تعدل جهد ساعة واحدة إذ لم تنفع الناس في أعمالهم وفي تدبير حياتهم"⁽⁸⁾.

إن مظاهر التجديد الديني لدى "محمد عبده" تتجلى من خلال دعوته إلى ضرورة التعايش السلمي بين الأديان ونبد أشكال التعصب والعنف الناتج عن الصراعات الدينية وضرورة إحلال التسامح الديني، ومن جهة أخرى يظهر هذا الإصلاح الديني في دعوته إلى لزومية الاجتهاد في الرأي، وذلك بواسطة العقل بعيدا عن أي تأثير من سلطة أخرى غير

هذه السلطة، ويرى أن هذا الاجتهاد يجب أن يكون نافعا للناس ويساهم في إصلاح حياتهم وتدير شؤونها، عكس ذلك الاجتهاد التقليدي الذي كان لدى شيوخ الأزهر.

إنّ هدف الإصلاح الديني عند "محمد عبده" كان موجها نحو غاية معينة ونحو تحقيق هدف، وهذا ما نلمسه في قوله: "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع إلى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه، وتقلّل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني وأنّه على هذا الوجه يعدّ صديقا للعلم، باعثا على المبحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل... كل هذا أعده أمرا واحدا..."⁽⁹⁾.

إنّ "محمد عبده" يرفض فهم الدين فهما تقليديا كما فهمه المشايخ وأولوه، بل يجب فهم الدين على طريقة فهم سلف الأمة، أي الصحابة في عهد "الرسول صلى الله عليه وسلم" قبل ظهور النزاعات، لأنّ نبع الدين في ذلك الوقت كان نبعا صافيا نقيا لم يتطرق إليه الزيغ والبدع في البشر بهدف حفظ الدين من الشطط واللغو وكذلك حفظ الإنسانية وبهذا يصبح العلم والدين يسيران جنبا إلى جنب على أسرار الكون.

ثالثا. الإصلاح التربوي عند محمد عبده:

يعتبر مشروع الإصلاح التربوي من أهم الانجازات التي سعى "محمد عبده" إلى تحقيقها في سبيل النهوض بالأمة وتحقيق ازدهارها، فقد كان هدفه يتمثل في التجديد الذي يخرج المجتمع الإسلامي من معضلة الجمود والتقليد. وقد كانت بداية الإصلاح لدى الإمام انطلاقا من الأزهر فالدعوة الإصلاحية التي سعى إليها تقوم على التغيير والتجديد وتمثلت في تدريس أهم العلوم الحديثة وعلوم السلف. كما خصص مبلغا ماليا لصالح الأزهر والقائمين عليه وكذا خصص راتبا للمعلمين⁽¹⁰⁾.

فقد رأى الإمام في الأزهر الطريق المؤدي لتحقيق التربية الصحيحة والسير بالأمة نحو التقدم في محاولة منه لإحيائها بشكل معاصر، لذلك هدف إلى تحرير الفكر من الجمود والتقليد وبناء منظومة تربوية تسعى إلى الاستفادة من مختلف العلوم الجديدة، وتقوم على تربية العقل وتهذيب الخلق⁽¹¹⁾، فالإصلاح التربوي عنده يقوم على مواكبة متغيرات الواقع ويحافظ على ثوابت ومقومات الأمة خاصة هويتنا المتمثلة أساسا في الدين واللغة، ويعتبره أكثر من ضرورة لقيام حضارة أي أمة تطمح للتقدم والتألق.

وقد سعى الإمام "محمد عبده" إلى استعادة مكانة الأزهر لأنه يعتقد بأنه هو الكفيل بنشر الدعوة الإصلاحية للأمة الإسلامية وكذا تكوين العقل الإسلامي، فالأزهر عنده ليس مجرد مكان للتدريس أو العبادة بل هو ذا أهمية كبيرة في سبيل إيقاظ الأمة⁽¹²⁾.

وهنا يظهر جليا الجانب الإصلاحي الذي برز فيه الأستاذ من خلال الاهتمام بجميع الأمور المتعلقة بالأزهر من الناحية المادية والمعنوية، إذ اعتبر أنّ النهضة الحقيقية لا تكون إلا بتربية الأمة وتعليمها فهما وسيلتان في سبيل تحقيق الإصلاح⁽¹³⁾ ولذلك توجه إلى الاهتمام بالمسجد، من منطلق أنه ساهم في ارتقاء الأمة وكذا انتشار الوعي فيها، ولأنه يدرك مدى الدور الذي يؤديه في التربية والتعليم.

كما نجد أيضا أن من أهم الأعمال التي عني بها "محمد عبده" وأكثرها حكمة، هي بناء مكاتب يمكن من خلالها تسهيل عملية التعليم، كما عمل الإمام على تجديد الأزهر فقام بتجديد الأروقة وكذا الإنارة، مما جدد العديد من الأمور التي من شأنها أن تساعد كل المكلفين على أمور الأزهر وأعماله⁽¹⁴⁾.

كل هذا لأنّ هدف الإمام من التربية والتعليم هو إثارة الوعي والحكمة لدى الأمة الذي لازمها خلال الفترات الماضية، مما توجب على رجل الإصلاح أن يكون حكيما بأحوال الناس وتداعياتهم وبهذا يحاول البحث في الحلول وهذا ما كان يسعى إليه الإمام.

إن التربية بحسب "عبده" هي العصا السحرية التي من خلالها يمكن أن يكتمل كل ناقص وكذا من شأنها أن تغير الحياة وتجعل السليبي إيجابيا⁽¹⁵⁾، وهو من خلال الدعوة

لإصلاح الجانب التربوي رأى في التربية الجانب الذي ينير الفكر ويساعد الأمة على اكتساب كل ما هو جديد في فهم الحياة وتفصيلها. والتربية التي كان يعنى بها هي التربية التي تستند إلى أصول الدين وتقوم على أهم أساسياته، هذا لأن الشريعة الإسلامية تقوم على جملة من المبادئ والتي من شأنها أن تحافظ على الأمة الإسلامية وتصورها.

لقد نادى "محمد عبده" بالطبقية في التعليم من خلال تقسيم المجتمع إلى طبقات تمثلت في طبقة العامة وطبقة الساسة وطبقة العلماء، وقد تمثلت كل منهما في نخبة من الناس، فالعامة تمثل أهل الصناعة والتجارة وغيرهم مما يتميزون بالأعمال البدوية، والساسة هي الفئة التي تعمل في إطار الدولة، أما العلماء هم أصحاب الحكمة والتربية، فالإمام سعى إلى هذا التقسيم ليوضح قيمة العلم إلى كل طبقة ومكانته. وهو لا يمانع من الارتقاء من الطبقة الدنيا إلى العليا⁽¹⁶⁾.

ويرى "محمد عبده": "أن الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية ... وهي عبارة عن السعادة الحقيقية ... فإذا ترى أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه"⁽¹⁷⁾، فبين الإمام أن التربية هي التي تساعد الإنسان على فهم ذاته كما تساعده على التحرر من الخرافات والبدع، فالإنسان يثبت نفسه من خلال التربية فهي القاعدة التي ينطلق منها نحو العالم.

"إن الهدف الذي كان يسعى إليه الإمام من وراء إنشاء المدارس الجمعية هو إعانة أبناء الفقراء ومحاولة تعليمهم والوقوف معهم، أي أن هدف الإمام هو إتقان العمل وكذا أن يتعلم جملة الأخلاق بإخلاص وأمانة... فهي تهدف إلى تكوين الخصال الحميدة لدى المجتمع"⁽¹⁸⁾، فمن خلال الدعوة الإصلاحية للإمام التي جاءت محملة بالإنجازات في محاولة تغيير الوضع للأحسن والنهوض بحال الأمة، رفض السير وسط زحام الماضي، لذلك كانت دعوته قائمة على التحرر من التقليد والسير نحو التجديد.

تمت عملية الإصلاح لدى الإمام على طريقة الإصلاح الصوري والذي يتمثل في إعادة بناء الحياة الاجتماعية، والانتقال من حال الفوضى إلى النظام مع ضرورة توسيع دائرة

العلوم والمعارف، والذي يتمثل في إصلاح الجانب الأخلاقي بتهذيب الخلق والارتقاء مع حسن الفهم⁽¹⁹⁾.

لقد قامت عملية الإصلاح عند الأستاذ بمحاولة الإحاطة بكافة الأمور التي من شأنها استعادة مكانة الأزهر والاستفادة منه في تحسين أمور الدولة والنهوض بحال الأمة، وقد عبر عنه بقوله: "إن نفسي توجهت إلى إصلاح الأزهر منذ أن كنت مجاورا فيه"⁽²⁰⁾.

والمقصود من ذلك هو أن الإمام سعى إلى تغيير أحوال الأزهر وتعديله ليكون منبرا لنشر العلم والمعرفة في المجتمع، فالرسالة التي جاء بها الإمام تهدف إلى تحسين أحوال الناس كما تهدف إلى التجديد والتحرر من الأساليب والطرق العقيمة.

رابعا. الإصلاح الاجتماعي:

لقد سعى الإمام "محمد عبده" للإمام بالجانب الاجتماعي والسياسي أيضا في سبيل إيقاظ الأمة وتحقيق النهضة المطلوبة منها، فالجانب الاجتماعي أحد الجوانب التي تطرق إليها فالآفات الاجتماعية كثرت سلبا ووجب الحد منها ومعالجتها انطلاقا من:

أ. الأسرة: حيث يعتبرها الإمام اللبنة الأولى والقاعدة الأساسية التي تساهم في ارتقاء الأمة وتقدمها، لذلك وجّه تركيزه عليها لإصلاحها وإقامة أسس وقواعد تقوم عليها التربية الأسرية، فالأسرة أنموذج متمثل في قيام الحضارة⁽²¹⁾.

فالإنسان ولد وهو محاط بالأسرة التي تعينه على التجارب وكذا تحاول أن تلقنه دروسا في الحياة، وكذا من أهم الأمور التي عالجها هي المرأة ومكانتها داخل الأسرة والمجتمع بشكل عام، فهي من أهم القضايا الإصلاحية التي عالجها وشهدها العصر، فالإمام حاول أن يتخلص من الأفكار الرجعية حول مكانة المرأة التي لم تكن لها قيمة واعتبار كسائر المخلوقات والانتصار على تقاليد الماضي⁽²²⁾.

ومن خلال هذه القضايا سعى الإمام إلى فك الجمود والتخلف الفكري، وسعى إلى تحسين ظروف المرأة مع تشجيع تعليمها بوضع مدارس لتعليم البنات وإعانة الفئات النسوية

التي لها حظ في التعليم من أجل تنوير العقول ومحاربة الجهل والقضاء على الأفكار البالية التي ساهمت في ركود الأمة⁽²³⁾.

كما بين الأستاذ "محمد عبده" أنّ الطلاق هو أحد الأسباب التي أدت إلى الفوضى والفساد الاجتماعي، وقد سنّ طريقا للحد من هذه الظاهرة تمثلت في مواد قانونية هي:

*** المادة الأولى:** على الزوج أن يحضر القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويميزه باتفاق الذي بينه وبين زوجته.

*** المادة الثانية:** يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أنّ الطلاق ممقوت عند الله.

*** المادة الثالثة:** إذا أمر الزوج بعد مضي أسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة ليصلح بينهما.

*** المادة الرابعة:** إذا لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدمتا تقريرا للقاضي أو المأذون.

*** المادة الخامسة:** لا يصح الطلاق إلّا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل إثباته إلّا بوثيقة رسمية⁽²⁴⁾.

ومن خلال الأحكام التي وضعها الإمام بدافع التخلص من الواقع المتخلف والأوضاع المزرية التي عاشتها المرأة في ظلّ التعدد الذي كان مفهومه خاطئا⁽²⁵⁾.

وقد جاءت حلّ هذه المحاولات لإعطاء المرأة قيمة داخل المجتمع، ولتبرز أهميتها ضمن المشروع النهضوي لديه، إلى جانب الجوانب التي طرق إليها في سبيل التخلص من الأفكار العقيمة والخرافات التي عرفتها الأمة العربية.

أما فيما يخص التكافل الاجتماعي فالإمام بين أنّ المجتمع جسد واحد، والمنفعة تكون عامة لصالح الأمة جمعاء فلا سبيل إلى المنفعة الخاصة في مجتمع يسوده العدل والمساواة⁽²⁶⁾.

فالأستاذ "محمد عبده" بيّن أهمية التكافل وتحقيق العدل بين الجميع دون تمييز أو أنانية لذلك سعى إلى المنفعة العامة التي تحقق الفائدة للجميع، فتعين الأمة وتخلصها من الرذائل والعديد من الصفات التي لا خير فيها والتي من شأنها أن تعيق التطور وقيام النهضة.

فالإمام "محمد عبده" حاول أن يربط القضايا الاجتماعية وفقا لما نصّت عليه الشريعة الإسلامية، لذلك تطرّق إلى الجوانب الاجتماعية وحاول معالجتها بمنظور إسلامي، وهو ما يراه مساعدا على نخوض الأمة من أزمتها واستعادة مكانتها بين الأمم مع المحافظة على جذورها الأصيلة، فالشريعة تخفف على الناس وتعينهم في فهم الحياة بشكل أفضل⁽²⁷⁾، أي أن الإمام مزج بين الأصالة والمعاصرة وحل المشاكل الاجتماعية بروح إسلامية وعصرية.

ومما عاجله الإمام مسألة تعدد الزوجات، وحاول تقديم عدة أفكار تسعى إلى الحد من هذه الظاهرة مستندا إلى ما جاء في الدين الإسلامي، فالإسلام حاول معالجة هذه الظاهرة فاشتراط العدل لقيام التعدد، كون الإسلام منح التعدد الذي لا يتعدى الأربعة وهذا للضرورة⁽²⁸⁾.

لقد حاول الإمام دراسة هذه الظواهر بنظرة إسلامية لا تسمح بالظلم وكذا للوصول إلى أمة يسودها العدل والتكافل.

خامسا. الإصلاح السياسي:

أما فيما يتعلق بالجانب السياسي والذي رأى "محمد عبده" أنه من الجوانب التي تهم النهضة، فقد تطرق الإمام إلى مبدئين أساسيين هما: الشورى والقانون، إذ يعتبرهما من القواعد النظامية التي تساعد على ارتقاء الأمة، لذلك يوضح لنا "إنّ أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الأمة العام، أعني المؤسس على مبادئ الشورى وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة"⁽²⁹⁾.

بمعنى أن الإمام نادى بضرورة الشورى كونها تساهم في جمع الرأي العام مع احترام القانون الذي يكون صادرا عن رأي الأمة ولا يكون ذلك إلا من خلال الشورى والاتفاق.

كما عالج "عبده" مسألة الحرية على اعتبار أنّ الإنسان حر، لذا نادى بالتححر وبيّن أهمية الحرية، وحدودها فلا عدل في أن تتعدّى الحرية إلى إلحاق الضرر بالمجتمع⁽³⁰⁾. فالإمام بيّن أن احترام الغير واجب، والناس سواسية، ووجب أن تكون هناك علاقات تحكمهما الأخلاق الفاضلة.

كما نجد أنّ الإمام قد عالج قضية رأس المال فهو لا يجذب استغلال المال بالمال فهو يرفض الاحتكار، كما بين أن استغلال المال بالمال من الأمور التي تؤدي إلى الفساد وانحلال المجتمع وكذا يؤدي بهلاك المحتاجين حتى يصبحوا ضحية لأصحاب المال⁽³¹⁾، فالإمام لا يجذب كل عمل مشين فالنهضة التي يدعو إليها هي رسالة تهدف إلى تحقيق مكارم الأخلاق وتنبذ الفساد، وقيامها ضرورة حتمية لتخليص المجتمع من الأفكار البالية وكذا الركود والانحدار الذي ميزه.

وفي هذا المساق بين دور الحاكم في قيام الحكومة والدولة بشكل عام، فهو مثال المجتمع، والمطلوب أن يتحلّى بجملة من الصفات التي تخوله أن يكون مميزا، فإن كان حاكما أصيل الرأي يتميز بالعدل وحسن القصد قاد الأمة نحو التححر والعدالة أما إذا كان جاهلا سيء الطبع أسقط الأمة مما يكثر فسادها⁽³²⁾.

عالج الإمام القضايا السياسية التي مسّت المجتمع في تلك الفترة وما ترتب عنها من أضرار، لذلك توجه إلى معالجة هذه القضايا، مبينا أنّ المجتمع الفاضل هو الذي يتّبع سيرة الإسلام، ويذهب إلى المصلحة العامة التي من شأنها أن تعود بالريح على كافة المجتمع وتشجعه على التقدم والتطور لأن أوامر الله هي مبادئ المجتمع البشري⁽³³⁾، وذلك طبعاً في ظل تكريس حرية الإنسان والدفع إلى تحقيق وعي حقيقي بمقاصد الشريعة.

وخلاصة القول في هذا المقام، أنّ الإمام حاول أن يبين حق الإنسان في التمتع بحقوقه كما أشار في الوقت نفسه إلى ما أمر به الشرع أن يؤدي من واجبات، لذلك وجب التمييز بين ما على الحكومة القيام به نحو الشعب، وما على الشعب التزامه اتجاه الحكومة في ظل التوافق بين كليهما⁽³⁴⁾.

مُخْتَمَم:

ومن هذا نخلص إلى أن الإمام "محمد عبده" من خلال جملة القواعد التي قدمها حاول الإحاطة بجميع الجوانب ومعالجة مختلف المشاكل التي يمكن أن تعترض الفرد أو الأمة. وتلك هي أهم المعالم البارزة في الجانب الإصلاحية للفرد الذي على أساس منه تقام أمور السياسة والمجتمع، بل حتى قضايا الاقتصاد بحسب "عبده"، والذي أشار إلى أنه لا يمكن أن يغيّر من الأمر شيئا ما لم يتم تقويم الفرد تقويما تربويا سليما. كما أنه حاول أن يربط القضايا الاجتماعية بما نصّت عليه الشريعة الإسلامية، لذلك تطرّق إلى الجوانب الاجتماعية محاولا معالجتها بمنظور إسلامي عقائديّ ممّا قد يساعد على نهوض الأمة من أزمتها واستعادة مكانتها بين الأمم مع المحافظة على جذورها.

الهوامش والإحالات:

- (1)- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ط2، دار الفضيلة، بيروت، ج1، 2006، ص ص 13-14.
- (*)- التصوف: هو نزعة تعول على الخيال والعاطفة أكثر مما تعول على العقل والتجربة الحسية. أنظر في هذا الصدد:
- إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 46.
- (2)- محمد عبده: مذكرات الإمام محمد عبده، دط، مؤسسة دار الهلال، دت، ص ص 32-33.
- (3)- زكريا سليمان بيومي: التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين، إشراف يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص ص 43-44.
- (4)- عباس محمود العقاد: عبقرى الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده، ط2، مكتبة مصر، دت، ص 106.
- (5)- سورة الرعد: الآية 13.
- (6)- محمود حمدي زقروق: الموسوعة الإسلامية العامة، ط1، المطابع التجارية، القاهرة، 2003 ص 508.

- (7)- محمد عبده: الأعمال الكاملة، تح: محمد عمارة، ط1، دار الشروق، القاهرة، ج1، 1993. ص 183.
- (8)- عثمان أمين: رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، دط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس، 1996، ص ص 147-148.
- (9)- محمد عبده: الأعمال الكاملة، ص ص 183-184.
- (10)- قادري فلعي: ثلاثة من أعلام الحرية، ترجمة: سعد زغلول، د ط، دار الكتاب العربي للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، د ت، ص 174.
- (11)- المرجع نفسه، ص 176.
- (12)- عثمان أمين: رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، دط، الهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، 1996، ص 190.
- (13)- محمد بهي: الأزهر تاريخه وتطوره، دط، دار مطابع الشعب، دت، ص 251.
- (14)- المرجع نفسه، ص 256.
- (15)- محمد عمارة: الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، ط2، دار الشروق، القاهرة، 1988، ص 213.
- (16)- المرجع نفسه، ص 228.
- (17)- محمد عبده: الأعمال الكاملة. ص 156.
- (18)- المصدر نفسه، ص 165.
- (19)- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده. ص 567.
- (20)- محمد عبده: الأعمال الكاملة. ص 193.
- (21)- محمد عمارة: المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده، دط، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2005. ص 127.
- (22)- المرجع نفسه، ص 132.
- (23)- محمد عمارة: الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص 244.
- (24)- المرجع نفسه، ص ص 245-245.
- (25)- محمد عمارة: الإصلاح بالإسلام، ط1، نخضة مصر، القاهرة، 2006، ص 185.
- (26)- محمد عمارة: محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص 154.

- (27)- محمد عبده: الأعمال الكاملة، ص 182.
- (28)- محمد عمارة: الإسلام والمرأة، ط1، نُهضة مصر، القاهرة، 2007، ص 41.
- (29)- محمد عبده: الكتابات السياسية، تقديم: محمد عمارة، د ط، وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2013، ص 122.
- (30)- المصدر نفسه، ص 95.
- (31)- عبد الرحمان محمد بدوي: الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005، ص 95.
- (32)- محمد عبده، جمال الدين الأفغاني: العروة الوثقة والثورة التحريرية الكبرى، تح: صلاح الدين البتاني، ط 3، دار العرب، القاهرة، 1993م، ص 104.
- (33)- آلبيرت الحوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة: كريم عزقول، د ط، دار انتشار بيروت، لبنان، 1939م، ص 184.
- (34)- محمد عبده: مذكرات الإمام محمد عبده، ص 70.